

الفصل الثاني

السماء في القرآن

ظهر من خلال ما تقدم من حديث حول الوصف في القرآن أن القرآن الكريم نظر إلى الوجود نظرة واقعية، وراه - كما هو - وحدة منسجمة، فوصفه وصفاً يشير التأمل والتفكر ليصل الإنسان من ورائه إلى خالق عظيم بسط هيمنته عليه .

والسما - ولا شك - مظهر من مظاهر القوة والعظمة، ومن هذه الزاوية انطلقت آيات القرآن الكريم في وصف السماء بل السموات السبع . ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبا: ١٢] .

وفي سورة نوح يسوق القرآن الكريم قضية خلق السماء مساقاً هادفاً يشير التأمل ويحث عليه، فالسموات سبع متتاليات طباقاً، وهن يحتجن قوة وعظمة تسترعي انتباه من نظر إليهن: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥] .

وازدادت سعة التساؤل هذا في سورة «ق» حيث وجه تفكير المتسائل عن هذه السموات إلى أن ينظر إلى بنائهن المحكم، وزينتهن بالنجوم والكواكب، وإلى اتساعهن وجمال ألوانهن . قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦] .

وفي سورة الملك تتسع دائرة الوصف قليلاً، فالسموات السبع طباق ليس فيهن نقص أو خلل، ولكن القرآن لم يعبر عن هذه الحقيقة بأسلوب جاف بل استحضر صورة السماء بفعل مضارع لينقل مشهداً من مشاهد الطبيعة الصامتة الخالدة، يلفت النظر إليه دليلاً على قدرة الله .

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣].

ويشرك البيان القرآني البصر في قراءة الطبيعة وتأملها ليكون نافذة واسعة إلى النفس، قال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَتِمِصْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ ثم أتمم البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿[الملك: ٤٣].

حقاً ينقلب إليك البصر خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من نقص^(١)، وفي سورة فصلت تفصيل في وصف السماء وصورتها الوسيعة فالسموات سبع، وما بينهن من الاتساع والعظمة ما يصعب على فكر البشر إدراكه. لكن القرآن الكريم لم يعبر عن هذا المعنى بهذا الوضوح بل استخدم قرينة أخرى تشير إلى إشراف عظيم وإطلاع عميم على السموات السبع وأمورهن: ﴿فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

أما السماء الدنيا التي تظللنا فقد بث الله فيها نجوماً مصابيح تنير الليل وتكون رسول إناس، وعلامات هدى، وحرس أمن. كل ذلك يعبر عنه بيان القرآن في آية قصيرة وجيزة الكلمات: ﴿وَرَبَّانَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وينقل أسلوب القرآن الكريم الكلام إلى الخطاب خطاب الناس جميعاً ويلفتهم إلى ما يعلوهم ويستحثهم على التأمل في هذا السقف المحفوظ فوقهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ولما كانت هذه السموات السبع عظيمة أشار أسلوب القرآن إلى أن الله سبحانه غير غافل عما يجري فيهن، بل هو مطلع على كل شيء: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

وفي نهاية وصف السماء نلاحظ أن القرآن الكريم قد جعل هذه السموات تنطق وأعطاهما لساناً يلهج بالثناء والتسبيح بحمد الله تعالى، جاء ذلك في سورة الإسراء: ﴿شَسِيعَ لَهُ التَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٠٩.

تلك هي بعض مظاهر وصف السماء في أسلوب القرآن الكريم، التي اتجهت في دقة نحو هدفين اثنين هما:

بيان عظمة السموات من نحو، وذلك حين أشار القرآن إلى تعدد السماء واتساعها ونظامها واتساقها.

إشعار السامع بعظمة الله وسيطرته على هذه السموات وإدارة شؤونها ومراقبة سيرها وفق ما رسم من قوانين، فهو الذي ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠].

هكذا وصف القرآن السماء كما هي وضمن لهذا الوصف الحيوية والإيحاء وعبر عن الحقائق الكونية تعبيراً رائعاً. يعيش المرء في ظلاله الندية، هاهي ذي السماء المترامية الأطراف، الوسيعة الأرجاء ترفع كما يرفع الإنسان واقية تحميه حرارة الشمس: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ ﴾ [الرعد: ٢].

وصف القرآن الكريم الشمس تارة، والقمر تارة ثانية، ثم وصفهما مجتمعين تارة ثالثة، وهو في كل مرة يشقق الحديث عن عظمة هذه العناصر التي تسهم في تشكل لوحة الوجود الكوني، وتكون مظهر قوة، ووسائل دلالة على الله وآثاره للفكر النائم أن يستيقظ ويدرك حقيقة ما حوله.

ففي سورة نوح نبه بيان القرآن الكريم الناس إلى أنفسهم، ثم حثهم على النظر في العالم المحيط بهم وما فيه من العجائب والآيات الدالة على الصانع القدير بأسلوب إنشائي يحرك الفكر: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

بعد أن مهد بهذا الوصف أشار إلى القمر الذي ينير هذه السماء الدنيا في حين، ثم تكون الشمس ذلك السراج المتقد الذي يلقي أشعته فتناثر في كل الأرجاء في حين آخر: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦].

وفي سورة الشمس يشير القرآن الكريم الفكر ليتأملها، فها هي ذي الشمس

تنبغ كل صباح ثم تنهض نشيطة فيبدو الضحى عامراً بالحياة والتناج: ﴿وَالْقَمِينَ
وَحَنَهَا﴾ [الشمس: ١].

ومع غروب الشمس وقدم الليل يبدو القمر وكأنه يبحث عن الشمس أو
يتعقبها فهما أبداً متلاحقان، فالقمر جادٌ في البحث عن الشمس يلاحقها
ويتلوها: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا﴾ [الشمس: ٤].

وفي سورة النبأ يشير القرآن إلى الشمس ويشبها بالسراج المتقد الوضيء:
﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

فالشمس سراج وهاج في سورة النبأ لكنها في سورة يونس مضيئة تضيء
الأشياء، والقمر نور يبين ويخفي حسب المنازل التي قدّر عليها^(١)، والحال
التي هو فيها، ومن وراء هذا النظام والتدبير يعلم السنوات والشهور. ﴿هُوَ
الَّذِي جَعَلَ الْقَمَرَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾
[يونس: ٥].

هذا الإيحاء تتركه كلمة «منازل القمر» التي تجعل الخيال يتصور القمر كل
يوم ينتقل بينها مدلاً^(٢).

وفي سورة فاطر يصف الأسلوب القرآني الشمس والقمر وهما يتراكمضان
متتاليين، يعدوان في أفق بعيد تحكمها قوانين دقيقة، إنه صنع الله الذي أتقن
كل شيء صنعه وبذلك يكون الوصف القرآني هادفاً.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

ويشبه بيان القرآن القمر في تنقلاته عبر جو السماء بالعرجون القديم ذلك
الذي ينتقل كل يوم، والشمس تحاول اللحاق به، لكنها لا تستطيع فهما
يتسابقان دون أن يخرجوا عن مجالهما، وكل هذا الفلك الدوار إنما هو بسيل.

(١) تفسير القرطبي ٣٠٩/٨ وانظر تفسير السفي ٢/٢٦٦.

(٢) تفسير القرطبي ٣١٠/٨.

من ذلك: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٩-٤٠].

وصف القرآن الكريم الشمس والقمر والنجوم على انفراد في بعض آي القرآن، ووصفها مجتمعة في بعض آيات أخرى؛ ففي سورة الأعراف ووصفت الشمس والقمر والنجوم وصفاً مجتمعاً في آية واحدة، فهاهي ذي النجوم المتقدة والقمر الهاديء ليلاً، والشمس النائرة نهاراً، كل هذه العناصر رغم اختلافها تتحد في خضوعها لله يسخرها كيف يشاء: ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولا غرابة، فهذه العناصر التي تزين القبة السماوية تزيدها بهاء، فالمصابيح من نحو، والبروج من نحو آخر، والشمس والقمر في وصف القرآن سراج وهاج وبدر منير: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١].

هذا الوصف للسماء وما فيها وصفٌ يتناسب فهمه مع مستوى من ينهض إلى قراءته وقد أورد الدكتور سعيد البوطي «أن هذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين، لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون وهذا سر إعجاز القرآن»^(١).

(١) أحسن الحديث للبوطني ص ١٠١.